ساعة شيخ البلد

للاب أنطون رباط اليسوعي

اذا ما خرجت يوم عيد في زمن الربيع من مدينة ليون فسرتَ اصيلًا على ضفّة نهر « السون » متتبعاً جريانه الى حيث يجتمع مع نهر « الرون » فيمزجان مياههما رأيت منظرًا بديعاً فتلُ فورڤيار (Fourvières) يمتدّ امامك وهو يزهو غضارة ونضارة تتخايل بين ادواحه قصور وابنية انيقة اتخذها موسرو البلدة مرابع لهم يلجأون اليها اذا ما لفحهم القيظ فان آثرت المسير على الأقدام والّا فان قطارات الترمواي الكهربائي تترادف مارّةً كالشهب فاختر ايها شئت توصلك الى جسر « المولاتيار » باجرة لا تتجاوز العشرين بارة ومنهُ تتسنم معطف الرابية بمراتٍ اولًا ثم بشعاب وعرة المرتقى حتى اذا ما وصلت الى جادّة « سنت فوا » عرّجت يميناً الى ساحة فسيحة فيها قوم من الفعلة والاكّارين اجتمعوا عائدين من الكنيسة بعد صلاة الماء جريًا على عادة مسيحيي الغرب أيام الآحاد والاعياد

ثم ترى القوم يتفرّقون ارهاطًا كل رهط على قسمين يلعبون بالكرات يدحرجونها ترويحًا للنفس من هموم الاشغال اليومية فيتجاذبون اطراف الحديث بيناء لا يشوب سلامهُ شائبة . ففي بعض الأيام بعد ان اخذوا نصيباً من الراحة وملّوا اللعب احدقوا بشيخ قد جلس على حدة ينظر اليهم وكانهُ بانتظارهم . وكان الرجل بيّن الشيخوخة احنى عبءُ السنين صلبهُ ولعب الشيب في لمّتهِ المنحدرة على كتفيهِ كعقد من لجين فزاده جلالًا وكانت تبدو على غضون جبينهِ سيماء التحنك والدراية

فقال احدهم وكان فتى غضّ الشباب : لم تُنجز بعدُ يا ابانا كنبار ما وعدتنا بهِ من القصص

فاحاطوا بهِ احاطة السوار بالمعصم يسالونهُ ان يشرح صدرهم بشيء من اخبار الاوّلين

فرفع الشيخ طرفه اليهم وقال : اتريدون ان اقصّ عليكم ما سمعتهُ او ما رأيتهُ بالعيان ؟

قالوا: بل ما رأيتهُ

— ما رأيتهُ ؟ اني رأيت اموراً جمّة لا يزال ذكرها في صدري كأني اليوم شاهدتها او هل اخبرتكم بساعة شيخ القرية ؟

— لا لا لم نسمعها بعد

— اسمعوا

فاصغوا جميعاً كأنَّ على رأسهم الطير

قال الراوي: قد مضى على هذا ستون سنة ونيف كنتُ اذ ذاك في ريعان الشباب لم اتجاوز السابعة عشرة من عمري وقد تُوفي ابي وانا صغير ولم تلبث ان لحقتهُ امي لما داهمها من الغمّ والحزن

قال هذا وتقبضت جبهتهُ فمسح بمنديله دمعةً سالت على خدّه المخدَّد ثم اردف كلامهُ وقال: فاصبحت يتيماً لا املك شروى نقير ولا اعرف صنعة تكسبني المعيشة غير انهُ كان لي المام بشيء من الغناء اخذتهُ عن جوّالة المغنين ولا يخفى على الرجال بينكم ما كان عليهِ ابائنا في الازمنة الغابرة من الشغف بالاغاني الوطنيَّة والالحان القديمة والادوار الزجليَّة التي اضحت اليوم نسياً منسيًّا في ظهراني من يدعون انفسهم اولاد عصر التمدُّن كأنَّهم قد اكتشفوا على الشمس والقمر ونحن كنَّا لهما جاهلين

قال هذا ووجّه طرفه بابتسام يستشفُّ من ورائهِ شيئاً من الاسف الى حلقة الشبان المكتنفين بهِ

فقاطعهُ احدهم: لا تغضب علينا يا عمّ كبار اننا نقدّر اغانيك والحانك القديمة حقّ قدرها فلا تصوّب الينا سهام مذمّة نحن منها خلاء وبراء

قال آخر: وبرهاناً لذلك نطلب اليك ان تسمعنا الليلة شيئاً من نغماتك المطربة فنكون لك من الشاكرين

قال كبار: حبًّا وكرامة. ثم عاد الى حكايتهِ

«قلتُ اني كنت عارفاً بالغناء فرأيت ان اتخذهُ لي حرفة فاطوف الاسواق واترصَّد المواسم في القرى المجاورة فاعيش قنوعاً بما يقدّرهُ الله لي لا ارغب في الثروة ولا أُعلّل الآمال ببلوغ معالي الرتب فاصبح يوماً سيّداً او اميراً كما يفعل فتيان عصرنا»

فتبسَّم الحضور لنكتته ولم يتاطموه

« ولكن اليد الوحيدة لا تصفق كذلك لا بدّ للفنا من رفقةٍ وذوي آلات فسهّل الله لي الامر على احسن ما كنت اروم وذلك اني بينما كنت اطوف يومًا وحدي في انحاء الجبل الذهبي(Mont-d'Or) رأيت شابًا طويل القامة صبيح الوجه حسن الشارة اهيف مَن تبصر في ملامح وجههِ خيّل لهُ انهُ لم يبلغ الحنث لما فيهِ من صفاء اللون واصفراره على حين كان قد ناهز او جاوز العشرين وكان اسمهُ الفريد الصبوديّ »

فقال احدهم: هو الفريد شتروب المغني الذي دُفن هناك على جنب كنيسة قريتنا

— هو هو فقد ذهبت مرارًا لاصلّي على قبر هذا المسكين صديق صباي ولم يعش طويلًا لما كان قد قاساه في صغره من الجوع وضنك العيش يتيمًا وحيدًا قضى مرارًا الليل تحت الجسور عرضة للبرد والارياح. فتأثرتْ من جرّاء ذلك بنيتهُ النحيفة وجرى داء السل في صدره فقصفهُ غضًا نضيرًا لم يبلغ الثانية والعشرين من عمره فمُنيت بهِ مدة مرضه عنايَ باعزّ الاخوان ولمّا قربت ساعته. قال لي: « اني احسّ ان قواي قد خارت فهل لك ان تدعو لي كاهنًا ». فاسرعتُ ولمّا جاء الكاهن سمع اعترافهُ وزوده بالاسرار. ولم يلبث ان اسلم الروح بسلام لم ارَه قط في ميتٍ. رحمهُ الله فاجاب الحاضرون: الله يرحمه

— قال احدهم. وساعة شيخ البلد نسيتها يا عمّ

— قال كبار: لم انسها. وكان لالفريد صوت رخيم اذا غنى خشيت الحمام يغرّد ويستنيح في صدرهِ فتوثر نغمتهُ في الافئدة ايّ تأثير يمسُّ الربابة مسًّا لطيفًا فترنّ تحت انامله وتصيح صياح الثكلى. قلمّا سمعتهُ راطّامت على جذقهِ عرضت عليهِ الشركة في اكتساب العيش فنكون يدًا واحدة وقلبًا واحدًا ونخلب الدهر اشطرهُ. فرضي ولمّا لم يكن ذا خبرة في التدبير ضعيف الجاش اذا رأى خيالًا طار قلبهُ شعاعًا كنتُ لهُ كالاخ الكبير والمدبر يتبعني كظلّي ويثقُ بي وانا اصغر منهُ سنًّا

فقضينا اشهرًا معًا نجول في انحاء ليون وسنت اتيان في هناء ورغد حتى انضمّ الينا شابّ آخر يُدعى شارل اولين. وكان لهذا اب حيّاك فلم يرضَ الابن ان يتّخذ حرفة ابيه فضاقت بهِ اسباب المعيشة فتبعنا وكان اهوج مهذارًا متهورًا ذا سحنةٍ مضحكة وقحًا اذا لقي من خصمهِ فشلًا لكن اذا فجأتهُ فاجئة ونظر اليهِ قرنهُ شذرا أُرعش جبنًا

وتلجلج لسانهُ فقرقر كالدجاجة عيًّا وخرقًا. على انهُ كان يزمر حسنًا ولم يلبث طويلًا في شركتنا لانهُ سمع بفتح الجزائر فسار اليها رغبة في الثروة ولا ادري اهو الآن حي او ميت

وفي بدء سنة ١٨٣٠ أنبتنا انهُ سيقام في نواحي « لونس لوسونيه » (Lons-le-Saunier) موسم عظيم يجتمع فيهِ الوف من الباعة من كل اطراف مقاطعة جورا فاغراني شارل على الذهاب اليهِ لنزور البلاد ونغني فنزنج ربحًا عظيمًا. فتلقَّيت هذه الدعوة ببشر لاسيَّما انَّ ثنَت كانت تقيم ابنة تجمعني وإيَّاها قرابة تدعى حنَّة لا يتجاوز عمرها عمري اتت الى سنَت فوا وهي صغيرة فكنا نلعب سويَّة وتواعدنا على الزيجة اذا ما كبرنا واتاحت لنا المقادير ثم عادت الى بلاد « فرنش كونته » وقد أعلمتُ انَّها خادمة. في فندق يسمى فندق الفرس الاحمر فرغبت في زيارتها لاذكِّرها ايَّام الصبا واري هل هي مقيمة على العهود

فاعددنا الزاد ووضعنا سُفرتنا في جراب وسرنا مشيًا على الاقدام لان السكك الحديديَّة لم تكن عندئذٍ في عالم الوجود ولو كانت لما مكَّنتنا اكياسنا الفارغة من ركوبها وصرنا نقطع المراحل تارةً نتجاذب اطراف الحديث وطورًا ننشد الاغاني فيزمر شارل وينقر الفريد ربابتهُ وانا اعاونهما في الغناء وكنَّا نبيت في القرى فنتقد مضيفينا غناء وانشادًا بدلًا من الدرهم والدينار الى ان صرنا على مرحلة من المدينة نحطّ رحالنا فقضينا ليلتنا في قرية نسيت الآن اسمها وبعد الظهر قلت لاصحابي: هلموا بنا الى « لونس » اذ لا بُدَّ لبلوغها من السير الحثيث فنأوي الى نزل الفرس الاحمر ونصيح نشيطين والَّا لاضطرَّنا الليل ان نبيت في الغابات وغدًا رأس السنة الجديدة ويوم موسمنا

فاذعنا لمتالي وسرنا وكان البرد قارسًا والثلج يتساقط فيكسي المزارع والآكام ثوبًا ناصع البياض تبدو من خلالهِ اشجار السنديان تتلاعب فيها الريح فتتمايل زهوًا ودلالًا فقطعنا ضياعًا وعمائر تارةً نتسلَّق الروابي وطورًا نهبط في الاودية وحولنا جبال قد اتَّزرت بالسحاب واعتمت بالثلج الى ان انهار جرف النهار وبانت « لونس » في منعطف وادٍ تكلِّل مفرقها قمم زبرجديَّة الالوان وتحيط بها الاشجار والحقول كمنطق من الخمل يلمع تحت اشعَّة الشمس الآذنة بالغروب

فتركنا جادّة الطريق وسرنا على حاشية غابة مظلمة حسبناها توصلنا الى منتزه « لونس » المشرف على المدينة حيث يقام الموسم ومنهُ ننحدر الى المدينة . وكنّا نسرّح الابصار في بديع ما بسطتهُ الطبيعة على مرآنا وألفريد ينظر الى ظلمات الغابة بتوجّس كأنّ في طيّها زُمَرًا من الجنّ واقفة لهُ بالمرصاد لتختطفهُ . فجعل يغني مكرّرًا ادوارًا حماسيّة حيناً بعد حين عسى ان يكشف عن قلبه غمامة الخوف الى ان غاض قرن الغزالة وراء الجبال وجاء الليل ناشرًا اجنحة الظلام فحثثنا السير واذا بصوت انكرناه ارتمش لهُ الفريد فالتفت الينا قائلًا : انّا لفي خطر

فقلتُ : دع عنك هذه الاوهام انّ الطريق امينة فلا خوف علينا وها القرية تجاهنا اقرب الينا من جبل الوريد

قال شارل : اظنُّ الفريد يخاف الوحوش الضارية . لا بأس عليك يا رفيقي فليس للسباع في التحيف مثلك مأكلٌ دسمٌ وكبار فايمن الله انّهُ لاسمن من الخروف المسمّن وهو اهلٌ لان تقرمهُ اسنان الغيلان

قال الفريد : ناشدتك الله دع عنك ذكر الغيلان فانّها تذكّرني ما طالما قصّتهُ عليَّ جدّتي من اخبارهم فاقشعرّ منهُ جلدي وعظمي

ثم رسم على جبهتهِ اشارة الصليب ورفع عقيرتهُ يغنّي . واذا بالصوت الذي سمعناهُ يتهرنا مرّة أخرى . فانتُقع لون الفريد والتجأ اليَّ كما يفعل الفرخ اذا رأى الباشق منحطًا عليهِ . فسكنتُ روعهُ وتجلّدت وتقدّمت الى حافة الغابة لارى هل هناك احد واذا برجل طويل القامة لحيم البدن ذي وجه عبوس وهو راكب على بغلة تنوء تحت ثقل جثته الضخمة بانٍ من خلال الدرح والعوسج الملتفّ عن يسارنا . فتقدمت اليهِ فقال : انعموا مساء ايّها الشبّان

فبرّقت فيهِ ناظري واجبتهُ على تحيّتهِ وعاودنا السير

فقال : الى اين انتم ذاهبون ؟

قلت : الى لونس لوسونيه

قال : عودوا حالًا على الاعقاب اني لكم ناصح فان في دخولها خوفًا عليكم

قلتُ : واي خوف ونحن شبّان نغتنم ايام المواسم والاعياد فنطوف القرى ونعيش من غنائنا دون أن نتعرّض لاحد

قال: اكر عليكم مشورتي ستلقون خطرًا
قالت: دع عنك الخوف يا شيخ السلام
قال: قد انذرتكم وقد أعذر من أنذر (التتمة الآتي)

اطيب مثال

في ترجمة المطران جرمانوس الشمالي

نبذة للكاتب الفاضل المحوري بشاره الشمالي

الحياة دعوات ومواهب لله الباري عزّ وجلّ وما حياة الطيب الذكر المطران جرمانوس الشمالي الشهير بالمبرّات الّا حياة رسول الانذار والتبشير في ديارنا الشرقيّة في النصف الاخير من القرن السابق اصطفاهُ الله ليكون قدوةً للاحبار ومثالًا لاهل الفضل وذوي الغيرة. فايفاء بالوعد واجابةً الى رغبة مدير هذه المجلّة نزفُّ الى قرّاء المشرق الكرام لباب حياة هذا الحبر الجليل التي اودعناها في كتاب مطوّل وسمناهُ بالدُّرَر الغوالي من حياة المطران جرمانوس الشمالي ونشرناهُ بالطبع مزيّنًا برسوم عديدة. ونقسم نبذتنا هذه الى ثلاثة ابواب نصف في اوّلها الرجل واهم اطوار حياته التي تقلّب فيها. وفي ثانيها المرسل واعمالهُ وطريقتهُ المُثلى في الوعظ والخطابة. وفي ثالثها نعتبر المؤلف والشاعر والمراسل وكلُّ ذلك على وجه الاجمال فرارًا من الاسهاب الممل. ومن استزاد فعليه بالكتاب المتقدّم ذكرهُ

١ الرجل واطوار حياته

سُهيلة قريةٌ خاملة تتوسّد منحنى جبلٍ من مقاطعة كسروان يبعد عن البحر نحو ميلين على كتف قرية عينطورا ذات المدرسة الشهيرة تحدق بها الغابات والاحراج الكثيفة كأنّها

سلطانةٌ حُفَّ الحرير محيطةً بفنائها من اخضر او اصفر
والبحر يرقص عند اسفل عرشها مستغنيًا بدويّه عن مزهر

فهذه هي القرية التي احتلّتها أسرة الشمالي منذ نحو مائتي سنة فنمت عددًا وفضلًا حتى زانها الله بفرع جديد اولاها فخرًا على فخر ألا وهو صاحب الترجمة فرنسيس ابن